هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الالماني فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

الغبطة القاسرة

وسار زارا يقطع أبعاد البحر تساوره مثل هذه الهموم ، وتدور به مثل هذه الأسرار ، حتى إذا تخطى مجال أربعة أيام عن الجزر السعيدة وما ترك عليها من صحبه ، اشتدت عزيمته فتغلب على آلامه ، وثبّت قدميه فى موقفه متجهاً إلى مقدراته مناجياً سريرته وقد عاد إليها مرحها وسرورها قائلاً :

لقد فزعت إلى عزلتى لأننى تقت إليها ، فأنا الآن منفرد أمام صفاء السماء ومدى البحار ، وقد خطا النهار إلى عصره وما التقيت بأصحابى للمرة الأولى إلا فى وقت العصر ، وفى مثل هـذا اليوم اجتمعت بهم للمرة الثانية . والعصر هو الساعة التى يهدأ فيها اضطراب الأنوار جميعها لأن السعادة الذاهبة بدداً منشورة على مسالكها بين السماء والأرض تتجه إلى الاستقرار فى روح

للمجوسيين الذين وردوا إلى الصين فى عهد « كانى وانغ » وهذا دليل قاطع يرد على من يدعى دخول الاسلام فى هذا العهد

أما اتصال الاسلام بالصين فكان عن طريقين : طريق البر وطريق البحر . كان قتيبة ابن مسلم الباهلى الذى فتح كاشغر فى سنة ٩٦ هـ ، هو الأول الذى بعث وفداً من العرب بطريق البر إلى امبراطور الصين فى أواخر تلك السنة فعرضوا عليه أحد الأمور الثلاثة : الاسلام والجزية والمحاربة . ولابن الأثير فى هذا الوفد أقوال طريفة توجد فى تاريخ الكامل ، وللقارئ أن يرجع إليه فى هذا الصدد ، وأما وصول الاسلام إلى الصين بحراً ففيه اختلاف بين المؤرخين فى سنة الوصول وفيمن هو أول من جاء بالاسلام إلى أقرب مرافىء الصين « كانتون »

(لها بقية)

يوسف الدين الصينى
عضو من البعثات الصينية
بالأزهر الشريف

الضياء . وها إن السعادة تحوّل اضطراب النور إلى سكون

فيالعصر حياتى ! إن سعادتى هى أيضاً قد انحدرت يوماً إلى الى الوادى تطلب مستقراً فلقيت هذه الأرواح النيّرة تفتح لها الملجأ الأمين

يا لعصر حياتى ! لكم تخليت عن أشياء فى الحياة توصلاً إلى مغارس أفكارى الحبيبة وإلى أنوار الصباح تدور فى ذراتها أسمى أمانىّ وآمالى

لقد طلب المبدع يوماً رفاقاً له وفتش عن أبناء آماله فأدرك أنه لن يجدهم إذا هو لم يخلقهم خلقاً

لقد أتممت نصف مهمتى باتجاهى نحو أبنائى وبعودتى إليهم ، وقد وجب على زارا أن يبلغ نفسه الكمال من أجل هؤلاء الأبناء . وما يحب الإنسان من صميم قلبه إلا ابنه ونتيجة جهوده ، وحيث يتجلى الحب الأشد فهنالك تكمن القوة المولّدة ؛ ذلك ما أدركته بتفكيرى

إن أزهار أبنائى لا تزال تتفتق فى الربيع والريح تهب على صفوفهم فتهزها ؛ فأبنائى أشجار حديقتى ونبت خير أراضى

إن هذه الأشجار متراصّة فى منابتها على الجزر السعيدة ، ولسوف أقتلعها واحدة فواحدة لأغرسها متفرقة فتتعلم احتمال العزلة وتنشأ فيها الأنفة والحزم لينتصب كل منها تجاه البحر وقد تعذّب جزعها وتعقدت أغصانها كمنائر حية للبقاء القاهر

على كل شجرة أن تشخص فى مهب العواصف الترامية إلى البحر حيث يتدافع الغمر إلى قاعدة الجبل فلا تغفل ليلاً ونهاراً عن تفحص سرائرها . عليها أن تتحمل التجارب ليعلم أنها من سلالتى وأنها تحدرت من أصلى تعززها الإرادة المجالدة فتبدو صامتة حتى عند ما تتكلم ، وإذا ما استسلمت تبدو معطية وهى آخذة . وهكذا يتحول من يمشى على أثر زارا بأضرابه وبابداعه إلى شخصية تحفر شريعتى على ألواحى فيكتمل بذلك كل شىء

وهأنذا من أجل هذه الشخصية وأمثالها أسعى إلى تكوين شخصيتى فأمتنع عن ورود السعادة مقتحماً كل شقاء فى آخر تجربة أتحملها لأدرك سريرتى

لقد آن الأوان لرحيلى وقد نبهنى إلى وجوب الرحيل خيال المسافر وأطول الأزمان وأعمق الساعات صمتاً إذ نفخ

الريح فى فتحة القفل فتراجعت درفة الباب قائلة : هيا

ولـكننى كنت مقيداً بحبى لأبنائى يأسرنى تشوق إلى هذا الحب لأصبح فريسة لهؤلاء الأبناء.فأضحى من أجلهم نفسى ؛ وما الشوق عندى إلا صورة ظاهرة لحقيقة فنائى . إن أبنائى لى وفى هـذا التملك يجب أن يضمحل كل شوق مستحيلاً إلى عقيدة مكينة

وكان رأسى يلتهب بشمس محبتى فتحرق بحرارة دمى فرأيت أشباح الشكوك تدور بى من كل جهة فتمنيت أن يلفحنى قرّ الشتاء حتى تصطك أسنانى من رعشة الصقيع ، وما عتم أن اكتسح نفسى ضباب الجليد ، فشق الماضى لحوده وبعثت منه الآلام التى دفنت وهي حية فيها ، وما تناولها الفناء لأنها كانت نائمة طى أكفانها

وكان كل شىء يشير إلىّ بأن قد حان زمن الرحيل ولـكننى كنت لا أنتبه إلى هـذه الدعوة حتى تحركت أعماق ولسعتنى ثائرات أفكارى . ويا ليت لى القوة للتغلب على ارتعاشى عنـدما أشعر بقوة التفكير فى أغوارى تحاول أن تخترق لها منفذاً ، فإننى لا أزال أحس باختلاج قلبي عندما أتنصت لدبيب أفكارى وهى تحاول الانجلاء لى . إن فى صمتك نفسه أيتها الفكرة ما يشد على عنق وأنت أشـد صمتاً من أغوارى . ولـكم حاولت أن أستخرجك من الأعماق أيتها الفكرة فخانتنى العزم واكتفيت بإضماري إياك فى ذاتى . إننى لم أتصل بعد إلى جرأة الأسد وإلى منتهي إقدامه

إنك لجدّ ثقيلة فى أغوارى أيتها الفكرة ولسوف أجد يوماً قوة الأسد وأتخذ لصوتي زئيره فأرفعك من الغور إلى المنبسط ، حتى إذا ما تغلّبت بذلك على نفسى تدرجت إلى انتصار أعظم أختتم به أعمالى . وإلى أن أبلغ هذا الظفر سأبقى تائهاً على بحار لا أعرف لها ساحلاً تداعبنى خطرات الأحداث فأتلفّت إلى ما ورائى وإلى ما أمامى ولا أعلم أين المنتهى

ألم تحن بعد ساعة جهادى الأخير أم هى ماثلة أمامى الآن ؟ والحق أن البحر والحياة يحيطان بى بجهالها الفتّان ويعلقان أبصارهما علىّ

فيالعصر حياتى ، يا للسعادة تتقدم ساعة المساء ، يا للمرسى فى وسط العباب ، يا للسكون فى قلب الارتياب ، إننى أحاذركنّ ولا أثق بكنّ جميعاً

أما والحق إننى أخشى جمالكن الغدّار كما يخشى العاشق ابتسامة تجاوزت حد التلطف فى افترارها . إننى أرفع عنى ساعة السعادة كالغيور يصد عن محبوبته ولما يزل العطف يتجلى فى قسوته وجفائه

بُعداً لك أيتها الساعة السعيدة ! فقد اجتاحتنى بحلولك غبطة قاسرة وأنا أتوقع أعمق الأحزان . لقد جئتنى فى غير الأوان

بُعداً لك أيتها الساعة السعيدة ! اذهبى واطلبى لك ملجأ هنالك فى مقر أبنائى ، سارعى إليهم وباركيهم قبل حلول المساء وأنيليهم سعادتي

لقد اقترب الغسق وجنحت الشمس إلي الغروب فتوارت عني سعادتى

هكذا تكلم زارا ...

وبات يتوقع نزول شقائه به طوال ليله ، غير أنه انتظر عبثاً إذ بقى الليل منيراً ساكناً واستمرت السعادة تخطو مع الساعات مقتربة إليه . وما لاح الفجر حتى بدا زارا يتضاحك قائلاً :

إن السعادة تتأثرنى لأننى لا أتأثر النساء ، وهل السعادة إلا امرأة ؟

قبل بزوغ الشمس

أيتها السماء الرافعة قبابها فوق رأسى نقية صافية ، أيتهـا السماء السحيقة وقد غادرت فى أبعادك الأنوار ، إننى أشخص إليك فتمتلكنى رعشة الأشواق الإلهية

أنا لا أسبر أغوارى إلا إذا سموت إلى عليائك ، ولا أشعر بطهارتى إلا حين يجللنى صفاؤك

إنك تحجبين نجومك كما يتلفع الإله بسنائه . أنت صامتة وبصمتك تذيعين لى حكمتك

لقد تجليت لى اليوم فى سكونك على زبد الآفاق فأعلنت لروحى المزبدة ما فيك من حب وعفاف . جئت إلي جميلة مقنعة بجمالك تخاطبيننى بلا كلام وتعلنين حكمتك وما كنت أعلم ما فى روحك من عفاف . أتيت إلى قبل بزوغ الشمس أنا المنفرد فى عزلتى

أنا وأنت صديقان منذ الأزل فأحزاننا واحدة كارتياعنا ، وعمق أغوارنا وشمسنا واحدة أيضاً . وما تتناجى إلا لوفرة ما نعلم ثم يسودنا الصمت فنتبادل ما أعرف وما تعرفين بلغة البسمات . أفما بعثت أنوارك من مكمن أنوارى أفليست فكرتك أختاً لفكرتي ؟

لقد تعلمنا كل شيء سوية وتدربنا سوية على الاعتلاء فوق ذاتنا متجهين إلى صميمها مبتسمين بافتراز لاتعكره الغيوم . وبلفتات صافية نفرقها في سحيق الابعاد في حين تتدافع كالأمطار تحتنا النزعات المكبوتة وأهداف الأخطاء

إلى مَ كانت تتوق نفسي عند ما كنت أذهب في الليل شارداً على مسالك الضلال ؟ وماذا كنت أطلب في تسلق الجبال نحو قممها ؟ أفما كنت أنت مقصدي أيتها السماء . وهل كانت أسفاري جميعها إلا ذهاباً مع حافز التدرب ؟ وهل كان لإرادتي من هدف غير التحليق في الأجواء ؟ وهل أبغضت شيئاً بغضي الغمام وكل نقاب يلفع الضياء ؟ لقد كرهت بغضي نفسه لأنه يعكر صفاءك أيتها السماء

إنني أنفر من هذه الغيوم تمر كأنها قطط برية تزحف زحفاً لأنها تختلس مني ومنك أيتها السماء الحقيقة الإيجابية الثابتة في كل شيء ؛ فأنا وأنت ننفر من هذه الدخيلات المكرات من هذه الغيوم الكاسحات ، فما هي إلا كائنات مختلطة في نوعها يسودها التردد فلا تعرف أن تلعن باخلاص ولا أن تبارك باخلاص . وخير لي أن ألجأ إلى مغارة أو أسقط في هاوية من أن أقف أمامك ياسماء الضياء وقد عكرت صفاءك الغيوم الكاسحات . ولكم وددت لو أنني أسمر أردانها على آفاقك بسهام البروق الذهبية ثم أنزل عليها الرعود تهوى قاصفة على مراجل أحشائها . إنني أود قرعها بعصا الغيظ لأنها تحجب عني حقائقك أيتها السماء الممتدة بأغوار أنوارها فوق رأسي كما تحجب حقيقتي عنك

لخير لي أن أسمع هزيم الرعود وولولة العواصف من أن أنتصت إلى مواء هذه الهررة الزحافة المترددة . ففي المجتمع أمثال لهذه الغيوم يسيرون مترددين بخطوات الذئاب وقد وقفت أشد بغضي عليهم

« على من لا يعرف أن يمنح البركة أن يتعلم إنزال اللعنات »

ذلك ما ألهمتنيه السماء الصافية مبدأ ينير سمائي كالكواكب في أشد الليالي قتاماً

ما دمت فوق أيتها السماء الصافية المتألقة بالأنوار فإنني لا أنقطع عن منح البركة وإيراد بياني إيجاباً وتأكيداً لأنير بعقيدتي جميع الأغوار المظلمة

لقد جاهدت طويلاً حتى أصبحت مباركاً ومؤكداً . وما ناضلت إلاّ لأحرر ذراعيّ فأبسطهما للبركة ؛ وتقوم بركتي على الاعتلاء فوق كل شيء كما تعتلي السماء والسقوف المكورة وقباب الأجراس والنبطة الدائمة . فطوبى لمن يباركُ هكذا . لأن كل الأشياء قد تعمدت من ينبوع الأبدية وماوراء الخير والشر ؛ وما الخير والشر إلا خيالات عابرة وأحزان بليلة وغيوم متراكضة إلى الفناء

والحق أن من البركة لا من اللعنة أن نسلّم بأن فوق كل شيء تمتدّ سماء الصدفة وسماء البراءة وسماء الحيرة وسماء الاضطراب

إن كلمة الصدفة لأقدم ما في العالم من نسب للأشياء ؛ وقد أرجعتُ كل الأشياء إلى هذا النسب النبيل فأنقذتها من عبودية القصد والهدف . وهكذا رفعت الحرية والنبطة السماوية عالياً ونصبتها كالقباب فوق جميع الأشياء إذ علّمتُ أن ليس من إرادة أبدية تعلو بها لتبسط مقاصدها فوقها

لقد وضعت حداً لهذه الإرادة بل لهذا الجنون وهذا الاضطراب عندما علّمت أن الوقوف عند الحقيقة كان مستحيلاً وسيبقى مستحيلاً . فما هناك إلا قليل من التعقل وذرات من الحكمة تتلقفها الكواكب فتميرة امتزجت بالأشياء جميعها ولولا الجنون لما امتزجت بها

ليس للإنسان أن يعطي من الحكمة إلا قليلاً . غير أنني وجدت في كل مكان عقيدة لها سعادتها وهي تفضيل الرقص على أرجل الصدفة المميماء

فيا أيتها السماء الممتدة فوق رأسي ، أيتها السماء الصافية المتعالية ، لقد أصبح كل صفاء فيك قائماً على اعتقادي بأن ليس في الكون عنكبة خالدة ، وليس فيه من الحكمة ما تنسجه العناكب . فلتكن مجالاتك أيتها السماء مسرحاً لخطرات الصدف الإلهية ، أو فلتكن خواناً يدحرج عليه الآلهة نردهم ، فعلام يعلو أديم وجهك الاحمرار ؟ أترى جاء بياني مبهماً أم وردت بركتي لك لعنة عليك ؟ أم أخجلك أن أنفرد بك فأردت أن أتوارى وأكف عن الكلام لأن الفجر قد لاح على الآفاق ؟

إن في العالم من الأغوار ما لا يدركه النهار ، ومن الأشياء ما يجب كتمانها أمامه ، وقد باغتنا النهار ، فلنفترق

أيتها السماء الممتدة فوق رأسي بطهرها واضطرامها . أيتها النبطة المتجلية قبل بزوغ الشمس ، لقد باغتنا النهار فلنفترق

هكذا تكلم زارا ... ...

(يتبع)